



الفصل الثالث

التوسع البحري في عهد الأمويين

obeikandi.com

الأسطول العربى فى شرق البحر المتوسط

كان اتجاه الأسطول العربى إلى مياه القسطنطينية ، واشتراكه مع القوات العربىة زمن الأمويين فى حصار القسطنطينية ، بداية مرحلة جديدة تحمل طابع التوسع البحرى ، ذلك أن أعمال الأسطول العربى السالفة من فتح قبرص ورودس ، أو وقعة ذات الصوارى ، تعتبر جزءاً من سياسة العرب الدفاعية وتأمين سلامة شواطئهم على البحر المتوسط ، غير أن وقعة ذات الصوارى جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها فى البحر المتوسط ، وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل فى سيادة ذلك البحر ، وانتزاعه نهائياً من قبضة الروم .

وكان معاوية هو صاحب الفضل مرة أخرى فى دفع العرب نحو التوسع البحرى ، فكما جاهد فى سبيل بناء أسطول عربى فى البحر المتوسط فإنه عمد إلى دفع العرب إلى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم نفسها . ولم يكن معاوية بالشخص الذى يرتجل أعماله ، وإنما يقدم على مشاريعه عن روية وتمحيص ، فما كاد يستتب له الأمر بعد النزاع الداخلى الذى نشب بينه وبين على بن أبى طالب ، وما كاد يصبح خليفة للدولة الأموية ، حتى أخذ يعد الأسطول العربى لمساعدة قواته البرية فى الاستيلاء على القسطنطينية .

وجاءت سياسة معاوية البحرية الجديدة عنواناً على فهمه التام لأوضاع البحر المتوسط ، إذ أدرك بثاقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر المتوسط الشرقى ، تغذيها بالقوات والإمداد ، وتشجع أهاليها على شن الغارات

على سواحل العرب بالشام ومصر . وقوّى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته المتكررة على جزيرة قبرص ، ودأب الروم على اتخاذ تلك الجزيرة شوكة تخز في جنب البلاد العربية المطلة على البحر المتوسط .

واستهل معاوية سياسته البحرية التوسعية بتقوية الثغور البحرية في كل من الشام ومصر ، وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر ، ثم بث النشاط في دور الصناعة بكل من مصر والشام ، كذلك لإنتاج السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤن والعتاد ، وفي نفس الوقت أعد معاوية قواته البرية التي خصصت للتعاون مع القوات البحرية العربية في الهجوم على القسطنطينية .

وتعتبر حملات العرب على القسطنطينية حجر الزاوية في بناء سياسة بحرية جديدة لم يعرفها التاريخ على نطاق واسع إلا في الحرب العالمية الأخيرة ، وقوامها خلق تعاون قوى ، وتنسيق تام بين القوات البرية والبحرية في الهجوم والغزو . ويرجع السبب في اتخاذ العرب تلك السياسة الجديدة إلى إغارات سكان جبل اللكام القرييين من حدود آسيا الصغرى التابعة للروم على أراضي الشام .

وكانت طبيعة جبل اللكام تساعد سكانه — وهم الذين أطلق عليهم العرب اسم المردة بسبب خروجهم دائماً على النظام وتمردهم — على تنفيذ خططهم العدوانية بدون أن ينالهم ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم بجبل اللكام على سلسلة جبال لبنان ، وأفادوا من موقعها الجغرافي وخلوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، وتقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد في حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها عبر ممرات هامة في هذه السلسلة الجبلية ، ولذا هدف الروم باتخاذ

المردة عضداً لهم ، ودفعهم إلى الإغارة على جبال لبنان سبيلاً لشل التعاون بين أساطيل المسلمين في القواعد البحرية وبين الجنود البرية في الداخل .

وظهر تعاون المردة مع الروم في تعطيل جهود المسلمين البحرية سنة ٤٧ هـ — ٦٦٦ م ، أى قبل عامين من قيام أول حملة عربية برية وبحرية ضد القسطنطينية ، إذ حين ترامت إلى سلطات الروم أنباء استعدادات معاوية للهجوم برّاً وبحراً على القسطنطينية ، اندفع المردة مع قوات من الروم عبر جبال لبنان لإحداث اضطراب في صفوف الحملة المنتظرة . ولكن المردة لم يلبثوا أن عادوا إلى قواعدهم حين عبأ معاوية قواته للقضاء عليهم ، وانسحب الروم إلى آسيا الصغرى .

وترتب على إغارة المردة تعديل في سياسة العرب البحرية ، إذ أدركوا ضرورة تأمين أسباب التعاون بين قواتهم البرية والبحرية ، حتى يتجنبوا عنصر المفاجأة ، ولاسيما أنهم على أهبة توسع بحرى عظيم ، فوضع معاوية جماعة من خيرة جند العرب في مراكز حربية على امتداد جبال لبنان استطاعت أن تحمى ظهر القوات البرية والبحرية في نفس الوقت في إقليم الشام ^(١) .

وفي سنة ٤٩ هـ — ٦٦٨ م أرسل معاوية حملة استطلاعية برية وبحرية لدراسة الطرق المؤدية إلى القسطنطينية . ^(٢) وفي العام التالى أعد معاوية مدداً آخر لشد أزر القوات البرية والبحرية التى خرجت للهجوم على القسطنطينية في العام السالف ، ووضع على رأسها ابنه وولى عهده يزيد ، وبلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس أن ضم إلى ابنه شخصية كبيرة من أصحاب الرسول الكريم ، وممن لعبت دوراً رئيسياً في مؤازرته ونصرة دعوته ، وهو أبو أيوب الأنصارى ، الذى أشرنا إليه آنفاً .

(١) البلاذرى . فتوح البلدان ، ص ١٦٩ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠ .

وعلى ضفاف البسفور نقلت السفن العربية تلك الأمداد التي حاصرت القسطنطينية ، وقد أظهر الجند العرب في ذلك الحصار تفانياً عظيماً ، جعل يزيد يلقب لشهامته باسم « فتى العرب » ، على حين توفي أبو أيوب الأنصارى — كما سبق أن ذكرنا — وهو يحاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها (١) . ثم رفع العرب الحصار سنة ٦٦٩ م ، بعد أن تبين لهم أن خير سبيل للاستيلاء على القسطنطينية هو إعداد أسطول قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية .

وتعتبر الحملة التي قادها يزيد بن معاوية ضد القسطنطينية حملة استطلاعية ، استهدفت معرفة موقع تلك العاصمة ، وأمثلة الطرق للاستيلاء عليها ، وكانت نتيجة تلك الدراسات التمهيدية هي أن الهجوم على القسطنطينية يتطلب إعداد أسطول عربى قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية ، وضرورة وضع خطة تنسق التعاون بين كل من القوتين البرية والبحرية أثناء حصار تلك المدينة المنيعه .

واكتسبت القسطنطينية تلك المكانة الاستراتيجية بسبب إحاطة المياه بها تقريباً من ثلاث جهات ، فقبل اتصال مياه البسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطئ الأوربى خليج عظيم طوله سبعة أميال فى انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله يعرف فى التاريخ باسم « القرن الذهبى » ، وبين القرن الذهبى وبحر مرمرة قامت رأس أرض تلالية ، على شكل مثلث متساوى الضلعين تقريباً ، رأسه يقابل الشاطئ الآسيوى . وعلى تلك البقعة الفريدة نشأت القسطنطينية التى صارت تنعم بميناء طبيعى فى القرن الذهبى ، يكفل لأساطيلها الحماية ، فضلاً عن حصانة المدينة نفسها ، لأن المياه تحيط بها تقريباً من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية .

(١) المرجع السابق . ج ٦ ص ١٣٠

وبعد أن قام العرب بحملتهم الأولى الاستطلاعية ضد القسطنطينية ، وجه أباطرة الروم جهدهم لتأمين وتدعيم وسائل الدفاع عن تلك العاصمة ، واستهدفت سياسة الروم إقامة حلقة محكمة من الأسوار والحصون تكفل للعاصمة مقاومة أى حصار يفرض عليها ، برًا كان أم بحرًا ، ولأطول مدة ممكنة . فشيد الأباطرة على جانب القسطنطينية البرى الممتد من البسفور إلى القرن الذهبى سورًا متيناً ، صار يُكُونُ قاعدة المثلث الذى تحتله المدينة . واشتمل ذلك السور على جدارين ، أحدهما ملتصق مباشرة بالمبانى ، ويكون خط الدفاع البرى الأول ، وتعلوه الأبراج والحراس ، والجدار الثانى الخارجى أكثر ارتفاعاً من الجدار الداخلى ، ويحيط به خندق عرضه ٦١ قدماً لعرقلة زحف القوات المعادية على العاصمة .

غير أن اهتمام الأباطرة الأعظم اتجه إلى شئون العاصمة البحرية ، إذ أقاموا جدارناً هائلة للدفاع عن القسطنطينية من ناحية البحر ، وغدت تلك الأسوار تحيط بجميع الجهات البحرية الثلاث للعاصمة ، وتعتمد فى منعها وقوتها على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سُمك الجدار وضخامته ، فكان على امتداد القرن الذهبى وبحر مرمرة أسوار بحرية تتصل بالسور الأرضى الذى يُكُونُ خط الدفاع البرى عن العاصمة .

ولم يقف اهتمام السلطات فى القسطنطينية عند الجانب الدفاعى الخاص بإقامة الأسوار ، وإنما حصنوا أيضاً الموانى التى ترسو بها الأساطيل المدافعة عن العاصمة . فإلى جانب القرن الذهبى كان للقسطنطينية موانى أخرى صغيرة تطل على البسفور ، وأدّت تلك الموانى برغم صغرها دوراً هاماً فى تسهيل الملاحة فى مياه القسطنطينية ، إذ كانت السفن تجد فيها أماكن هادئة تأوى إليها عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة ، والذى يزيد من حدته هبوب الرياح الشمالية العاصفة ، فقد ترتب على هذا التيار والرياح معاً

عرقلة السفن التي تبغى الطواف حول رأس القسطنطينية ودخول القرن الذهبي ، لتلقى مراسيها عنده .

وفي ذلك الوقت الذي جهدت فيه دولة الروم في تحصين عاصمتها ، صمم معاوية بن أبي سفيان على إعداد حملة ثانية تستهدف الاستيلاء على القسطنطينية قبل أن يتم الأباطرة وسائل الدفاع عنها ، وكان للأسطول العربي المكنانة الأولى في تلك الحملة التي سارت طلائعها في سنة ٥٣ هـ — ٦٧٣ م بقيادة عبد الرحمن بن خالد ، وقد حل فصل الشتاء والأسطول في طريقه إلى مياه القسطنطينية ، فألقت السفن مراسيها على شاطئ قلبيقية حتى يتحسن الجو .

وبمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول عربي آخر ، ثم استأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية . وفي شهر أبريل اجتاز الأسطول العربي مضيق الدردنيل بدون أن يلقي مقاومة ، واستولى على جزيرة قزيقوس (أرود في المراجع العربية) في مياه القسطنطينية الإقليمية ، واتخذها قاعدة لإدارة حملاته ضد العاصمة .

وجرت أحداث الحصار العربي للقسطنطينية وفق خطة كان للأسطول فيها الدور الرئيسي ، إذ نقلت السفن العربية الجند إلى البر محاصرة أسوار القسطنطينية الخارجية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تمتد سفنه بين رأس « هيدومون » التي تبعد سبعة أميال عن أسوار القسطنطينية ، وبين رأس « كيكليوس » الواقعة بالقرب من أحد أبواب العاصمة المعروف بباب الذهب .

واستمر الحصار البري البحري للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر ، حيث تخللته المناوشات بين أساطيل العرب والروم ، وبين جند كل منهما كذلك ، فكانت سفن الروم والعرب تتصادم من الصباح إلى المساء ، على حين

تتراشق القوات البرية بالسهام والقذائف . وظلت المعارك بين الفريقين سجلاً بدون أن يستطيع أحدهما التغلب على الآخر .

وفي شهر سبتمبر ، أى بحلول الشتاء ، رفع العرب الحصار عن القسطنطينية ، بسبب رداءة الأحوال الجوية بالقرب من تلك المدينة ، ولكن العرب أظهروا بفضل أسطولهم من الجند والمثابرة ما أثار قلق سكان عاصمة الروم ، إذ فى شهر سبتمبر ، الذى رفع فيه العرب الحصار ، عادت سفن أسطولهم تحمل الجند إلى جزيرة أرواد ، التى بها قاعدة الأسطول ، لتقضى بها فصل الشتاء ، وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة .

وبمطلع الربيع عادت سفن الأسطول العربى تحمل الجند إلى أسوار القسطنطينية ، على حين تابع الأسطول حصار المدينة بحراً ، كما حدث فى العام السالف ، وقد أنزل الأسطول العربى بالجند المدافعين عن القسطنطينية خسائر فادحة ، ولكن بدون أن يتمكن من اقتحام الأسوار البحرية ، وسرعان ما حل الشتاء مرة أخرى ، واضطر الأسطول إلى نقل الجند ثانية إلى جزيرة أرواد . وقد تكررت تلك الخطة الحربية لحصار القسطنطينية سبع سنوات ، يبدأ الأسطول العربى فيها بنقل الجند إلى أسوار المدينة فى مطلع الربيع ، ثم يكمل هو حلقة الحصار من البحر ، ثم يعود فينقل الجند شتاء إلى جزيرة أرواد انتظاراً لمقدم الربيع التالى ، وهكذا . وأظهر أمراء البحار العرب فى أحداث هذا الحصار الكثير من ضروب البسالة والشجاعة ، ذلك أن الروم قد عرفوا فى تلك الفترة النار البحرية لأول مرة ، وهى سلاح خطير أتعب الأسطول العربى ، لأن كرات النار التى قذفها الروم كانت تشتعل على الماء وعلى ظهور السفن على السواء ، بدون أن يعرف العرب إذ ذاك وسيلة لإطفائها .

غير أن هذا السلاح الجديد لم يفت فى عضد أمراء البحار العرب ، وإنما جاءتهم الإمدادات البحرية تباعاً ، إذ وصل أسطول عربى آخر تحت قيادة

سفيان بن عوف شد من أزر القوات العربية المحاصرة للقسطنطينية ، على حين أسهمت السفن العربية في مهاجمة أساطيل الروم وحملتها على الانزواء في موانئ العاصمة ، برغم استخدام تلك الأساطيل للنار البحرية .

وبعد سبع سنين من تلك الحروب المضنية أحس معاوية بن أنى سفيان بدنو أجله ، وأنه لابد من سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية حتى لا تتعرض تلك الحملة إلى الأخطار إذا ما حلت به الوفاة وهى مازالت مشتبكة مع العدو ، ومن ثم دخل معاوية فى مفاوضات مع الروم لسحب أسطوله وقواته ، وكانت دولة الروم تتلهف على إنهاء ذلك الحصار القاسى ، وأرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا ، وهو من أشهر رجالها الدبلوماسيين ، وأكثرهم ذكاء وفطنة .

وقد حضر يوحنا جلسات كثيرة فى دمشق ، ضمت خيرة أبناء البيت الأموى ، وأبدى فيها من الإجلال للخلافة الأموية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه ، ولذا نجحت مفاوضات يوحنا فى عقد صلح بين دولته والخلافة الأموية مداه ثلاثون عاماً ، وبعد إبرام المعاهدة عادت الأساطيل العربية والقوات البرية من حصارها للقسطنطينية إلى قواعدها بالشام ، بعد أن أثبت العرب للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قبضة البحرية العربية الناشئة وضرباتها الشديدة .

وتعتبر تلك الحملة البحرية على القسطنطينية عنواناً على قوة جلد العرب وقدرتهم على اكتساب الخبرات فى الميدان البحرى فى سرعة فائقة ، إذ عرف أمراء البحار طبيعة المنطقة التى تشغلها عاصمة الروم ، وقوة أسوارها وأنواع استحكاماتها ، وذلك على أسس من الدراسة والتحصيل ، بدون أن يعتمدوا على الارتجال ، ويدل على ذلك اختيار جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية لتكون مركزاً لحركات الأسطول العربى فى الصيف والشتاء فى مياه تلك

العاصمة ، وكذلك دلت أحداث الحصار البحرى على أن العوامل الطبيعية وحدها من تدفق التيارات المائية هى التى عرقلت استيلاء الأسطول العربى على القسطنطينية .

ولقد كان معاوية بعيد النظر حين عجل بسحب الأسطول العربى بعد أن حاصر القسطنطينية حصاراً شديداً مدة سبع سنوات كاملة ، إذ ما كادت سفن الأسطول تلقى مرساها فى قواعد الشام سنة ٦٨٠ م حتى توفى معاوية فى نفس العام ، تاركاً ابنه يزيد الذى تولى منصب الخلافة وسط معارضة شديدة من بعض كبار رجالات العرب ، وعلى رأسهم الحسين بن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير .

وقد ترتب على تلك المعارضة الشديدة حدوث انقسام فى الدولة الإسلامية ، وقيام حروب أهلية مريرة صرفت جهد البيت الأموى عن متابعة النشاط البحرى ، وفضلاً عن ذلك فإن مشاكل البيت الأموى لم تنته بقضاء الخليفة يزيد بن معاوية على ثورة الحسين بن على بن أبى طالب ، بل حدث أنشقاق فى البيت الأموى نفسه عقب وفاة يزيد وتولى ابنه معاوية الثانى عن الخلافة ، ذلك أن نفرًا من بنى أمية تطلع إلى انتزاع الخلافة لنفسه ، وانتهى النزاع سنة ٦٤ هـ — ٦٨٥ م حين تولى مروان بن الحكم الخلافة ، مسجلاً بذلك انتقال زمام الدولة الإسلامية من البيت السفىانى إلى البيت المروانى .

ولم يترتب على ذلك الانقلاب فى مصدر السلطان فى البيت الأموى تغيير فى سياسة العرب البحرية تجاه البحر المتوسط ، إذ تابع أفراد البيت المروانى سياسة الفرع السفىانى فى الاهتمام بالأسطول العربى ، وتدعيم قواعده فى البحر المتوسط ، وكانت آية هذا النشاط المروانى هو نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان فى إقصاء المردة — الذين دأب الروم على استغلالهم فى شل التعاون بين القوات البرية العربية والأسطول العربى — عن أماكنهم نهائياً بجبل اللكام .

ويرجع نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دهائه ، وقصر نظر معاصره
إمبراطور الروم ، وهو جستنيان الثاني ، إذ دخل عبد الملك مع هذا الإمبراطور
في مفاوضات تستهدف نقل المردة من جبل اللكام إلى داخل أراضي الروم
مقابل دفع ١٠٠٠ دينار سنوياً . ولم يجد عبد الملك أية غضاضة في دفع هذا
المبلغ مقابل إبعاد أكبر خطر يهدد قواعد الأسطول العربي بالشام ، ونجحت
تلك المفاوضات ، حيث نقل جستنيان الثاني ١٢٠٠٠ من المردة إلى رومانيا ،
على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، وتبعثرت البقية الباقية منهم داخل آسيا
الصغرى (١) .

وبذلك كسب عبد الملك جولة هامة في دعم الأسطول العربي ، في فترة
كان مشغولاً فيها بثورة عبد الله بن الزبير ، الذي حمل لواء المعارضة للبيت
الأموي بعد مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب . وقد أحس المعاصرون من
الروم خطورة عمل جستنيان الثاني ، وفداحة الخطأ الذي تردى فيه حين
أجاب الخليفة عبد الملك إلى طلبه ، إذ قال أولئك المعاصرون : إن نقل المردة
حطم « الستار الحديدي » (٢) الذي وقف في وجه طلائع الأسطول العربي
وقواته في هجومها على بلاد الروم .

وعندما توفي الخليفة عبد الملك سنة ٧٠٥ م ، ترك لابنه الوليد دولة ثابتة
الأركان ، ولاسيما بعد أن نجح في القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . وكان
الوليد خير خلف لأبيه ، إذ تابع سياسة تقوية الأسطول العربي ، وخلق تعاون
قوى بينه وبين القوات البرية . واتخذ الوليد من بلاد الروم في آسيا الصغرى
ميداناً تتدرب فيه القوات البحرية العربية والبرية على التعاون في الهجوم على
معازل الروم ، تمهيداً للزحف على القسطنطينية .

(١) الطبري : ج ٥ ص ١٣٠ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ١٠٨ .

وأُسهم الأسطول العربى فى تلك التدريبات مساهمة فعالة ، اتسمت بالمغامرة كذلك . وفى إحدى حملات الأسطول العربى سنة ٩٠ هـ — ٧٠٩ م وقع أمير البحر العربى خالد بن كيسان أسيراً فى أيدي أسطول الروم ، غير أن إمبراطور الروم آثر مهادنة العرب ، وأعاد خالد بن كيسان للخليفة الوليد ، برهاناً على تطلعه إلى الوثام والسلام (١) .

ولكن الخليفة الوليد لم يفض النظر عن عاصمة الروم ، وأدرك ضرورة الزحف على تلك العاصمة ليحرم أسطول أعدائه من أهم قاعدة له فى البحر المتوسط ، ولذا أخذ الوليد يعد حملة بحرية وبرية قوية ، نُصَّبَ عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفى سنة ٧١٤ م ترامت إلى سلطات الروم أنباء الاستعدادات البحرية العربية ، فأوفد الإمبراطور أنسطاسى سفارة إلى دمشق تفاوض الأمويين فى عقد هدنة ، وتؤكد فى نفس الوقت من مدى استعداد الأسطول العربى ، وكان رئيس تلك السفارة رجلاً حصيفاً يدعى دانيال ، حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد دولة الروم على صدق تقاريره (٢) .

ولما وصلت سفارة الروم إلى دمشق شاهد ضخامة الاستعداد البحرى والبرى ، وعادت تحمل تلك الأنباء إلى العاصمة ورجاها فى القسطنطينية ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع ، ولاسيما الاهتمام بالناحية البحرية . واتجهت خطة الروم البحرية إلى خلق قاعدة لأسطولهم ، تكون مهمتها عرقلة زحف الأسطول العربى على القسطنطينية وإنشاء قاعدة أخرى قوية فى العاصمة نفسها لمقاومة حصار الأسطول العربى إذا ما استطاع الوصول إلى مياه القسطنطينية .

(١) الطبرى : ج ٨ ، ص ٦٨ .

(٢) حسن إبراهيم ، المرجع السابق ص ٢٢٠ .

وتجلت سياسة الروم الجديدة حين جعلوا من شواطئ آسيا الصغرى والجزر القريبة منها إقليماً بحرياً حريياً ، ترسو في قواعده سفن حربية على أهبة الاستعداد للقتال ، وفي نفس الوقت أقام الروم في جهات بحر مرمرة المواجهة للقسطنطينية فرقاً بحرية تساعد أسطول العاصمة على الدفاع ، وقد نال أمير البحر على أسطول القسطنطينية سلطات واسعة ، تخول له حق تنظيم وسائل التعاون بين أسطول شواطئ آسيا الصغرى وأسطول ساحل بحر مرمرة (١) .

وفي نفس الوقت أعادت سلطات الروم تجديد أسوار القسطنطينية ، ولاسيما الجهات المطلة منها على المياه ، حيث كان التداعى قد دب فيها ، ثم وضعت على تلك الأسوار كل الآلات الحربية من المحانيق وغيرها من وسائل الدفاع ، واستعد سكان القسطنطينية لحصار قد يطول إلى ثلاث سنوات ، ووضعوا في خزائن منازلهم كميات كبيرة من الغلال (٢) .

ورأى إمبراطور الروم المبادرة بعرقلة استعداد العرب البحرى ، ولاسيما أن وفاة الوليد وتولى أخيه سليمان الخلافة لم يترتب عليه فتور في تلك الاستعدادات (٣) . إذ عمد الخليفة سليمان بدوره إلى خلق تعاون وثيق بين الأساطيل العربية في مصر والشام والاستعانة كذلك بالأسطول العربى الفتى في شمال إفريقيا التى ضُمَّتْ إذ ذاك للدولة الإسلامية ، فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن حربية جديدة في دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الأسطول العربى المتجه لحصار القسطنطينية .

وعندما علم إمبراطور الروم بأنباء استعداد الأسطول العربى ، عمد إلى مهاجمة الأسطول المصرى ، وتخريب الأخشاب التى يحملها قبل وصولها إلى

(١) د . محمد عبد المنعم خفاجى : صور من الإسلام ص ٥٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٧ .

(٣) الطبرى : ج ٨ ، ص ١١٨ .

دور الصناعة في مصر ، وعهد الإمبراطور إلى فرق الحرس الإمبراطوري — وهي أشد فرق الجيش بأساً وتدريباً على فنون القتال البحري — بتنفيذ تلك المهمة ، ولكن باءت مجهودات الإمبراطور أنسطاسي بالفشل ، لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره وكراهيتها له ، إذ شقت عصا الطاعة حين وصل الأسطول الذي يقلها إلى رودس ، وقتلت القائد الذي عينه الإمبراطور لإدارة عمليات الهجوم .

ورأى الخليفة سليمان حين وصلته أنباء ذلك العصيان أن الوقت قد حان لضرب القسطنطينية مرة أخرى .^(١) وفي سنة ٥٩٨ هـ — ٧١٧ م تحركت الجيوش الإسلامية والأسطول العربي من الشام تحت إمرة أخيه مسلمة الذي سبق أن عينه الوليد قائداً عاماً ، وكانت خطة مسلمة أن تسبق القوات البرية الأسطول العربي في الزحف عبر آسيا الصغرى ، وتمهد لخلع الإمبراطور ، ثم تنتظر الأسطول على الشاطئ الآسيوي عند البسفور .

وسارت الجيوش العربية عبر آسيا الصغرى ، واتفق مسلمة بن عبد الملك مع أحد قادة الروم الحانقين على الإمبراطور ، ويدعى ليو الإيسوري ، على الذهاب إلى القسطنطينية ، وإحداث فتنة بها ، مقابل تعهد مسلمة له بتنصيبه إمبراطوراً جديداً على دولة الروم ، غير أن ليو حثت بتعهده ، إذ ماكاد يدخل القسطنطينية ، حتى استغل أنباء الحملة الإسلامية الزاحفة على العاصمة ، واستمال الناس بها إليه ، ثم عزل الإمبراطور أنسطاسي وتولى العرش ، معلناً قدرته على صد الهجوم المنتظر ، بسبب وقوفه على خطط العرب .

وبعد خمسة أشهر من تولى ليو العرش وصلت قوات مسلمة البالغ عددها ٨٠,٠٠٠ جندي إلى أسوار القسطنطينية ، وبعد ستة عشر يوماً من وصول

(١) اتخذ الخليفة مقر قيادته في دابق بشمال الشام . « وأعطى الله عهداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم القسطنطينية » . انظر الطبري ج ٨ ص ١١٨ .

مسلمة إلى أسوار عاصمة الروم ، أى فى أول سبتمبر سنة ٧١٧ م دخل مياه البسفور أول أسطول عربى كبير مكون من ١٨٠٠ سفينة حربية ، عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين قواته البرية والأسطول العربى لإتمام حلقة الحصار حول القسطنطينية ، فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان ، أمير البحر العربى ، إلى سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن ، ثم فرَضَ حصارًا على الأسوار البحرية كذلك .

وأخذ الأسطول العربى ينفذ خطته ، فاحتل مدخل البسفور الجنوبى لقطع الاتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة ، الذى يعد مصدر تموين للعاصمة من الجنوب ، ثم انتهز أمير البحر سليمان فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطرًا من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالى لمنع وصول أى مدد يأتى للمدينة من البحر الأسود ، ولاسيما أن شواطئ هذا البحر الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تزود القسطنطينية بالغلال .

وسارت السفن العربية الكبرى سيرًا بطيئًا لتحقيق الخطة الخاصة باحتلال المدخل الشمالى للبسفور ، بسبب التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة ، ثم حدث حادث قلب خطط الأسطول العربى رأساً على عقب ، إذ غيرت الرياح الجنوبية ، التى اعتمد عليها أمير البحر العربى فى إكمال حلقة الحصار البحرى على القسطنطينية ، اتجاهها فجأة ، شأن الأحوال الجوية فى تلك المنطقة ، فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ، التى زادت بها قسوة رداءة الملاحة فى تلك المياه الإقليمية للقسطنطينية .

وقد انتهز الروم تلك الفرصة التى نشرت الفوضى فى صفوف الأسطول العربى ، وبعثوا سفنهم المحملة بالنار البحرية ليزيدوا فى متاعب السفن العربية وبحارتها ، ولذا تعتبر طبيعة الملاحة حول القسطنطينية ، وكذلك الأحوال

الجوية حولها ، هى العامل الأول والرئيسى فى الحيلولة بين الأسطول العربى وبين تنفيذ خطته الخاصة بغلق مدخل البسفور الشمالى ، أما النار البحرية التى علقت عليها المراجع الأوربية أهمية كبيرة فى إنقاذ القسطنطينية ، فليست إلا عاملاً ثانوياً أضيف إلى أعباء العرب ، وأنها ليست العامل الأول أو الرئيسى فى فشل خطة الأسطول العربى ، إذ يُلاحظ أن الإمبراطور ليو لم يجرؤ على إرسال سفنه المحملة بتلك النار إلا بعد أن لعبت الطبيعة دورها فى الوقوف فى وجه الأسطول العربى .

غير أن القائد العام ، مسلمة بن عبد الملك ، صمم على محاصرة القسطنطينية براً برغم بقاء جبهتها المطلّة على القرن الذهبى مفتوحة ، وظل الحصار مستمراً حتى جاء الشتاء ، فتابع الحصار برغم قسوة الطبيعة فى تلك الفترة من السنة (١) .

وبمطلع الربيع وصلت نجندات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك ، فجاء أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد ، وهناك تَعَاوَنَ هذان القائدان البحريان مع مسلمة ، لأن أمير البحر ، السابق سليمان ثوفى من قبل أثناء الشتاء ، وكذلك وصلت نجندات برية بقيادة رجل يدعى مرداس ، اضطلعت بمهاجمة شواطئ البسفور البحرية لتحول بين السفن التابعة للروم وبين الخروج طلباً للحصول على صيد بحرى يغذى سكان العاصمة ، أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه .

واستخدمت القوات العربية لأول مرة النفط ، كما استعانوا بنوع من المجانيق

(١) كان القائد مسلمة قد احتاط للعوامل الجوية فى تلك المنطقة ، فعمل به بيتاً من خشب شتا فيها وزرع الناس .. وأقام بالقسطنطينية قاهراً ، ومعه وجوه أهل الشام ، انظر : الطبرى : ج ٨ ص ١١٧ .

أشبهه بالمدفعية في هذا الحصار ، وكذلك أبدى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية . وظهر من الجند العرب عبد الله البطال ، كبير حراس مسلمة بن عبد الملك ، الذى أبلى في هذا الحصار بلاءً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال ، وغدا اسمه موضوعاً لعدد من القصص تناولت شجاعته باسم « السيد غازى » (١) .

غير أن حصار القسطنطينية ظل ناقصاً برغم أعمال البطولة التى أبدتها الجند العرب ، ذلك أن العوامل الطبيعية بالقرب من القسطنطينية لعبت دورها مرة أخرى في عرقلة نشاط الأسطول العرى ومنعه من مساعدة القوات البرية في حصارها لعاصمة الروم ، إذ بينما وقفت الجيوش العريية أمام أسوار القسطنطينية وفرضت عليها حصاراً شديداً ، لم يستطع الأسطول السير شمالاً للسيطرة على مضيق البسفور ، وكان السبب في ذلك هو اشتداد تدفق التيار المائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، بسبب تغيير الرياح لاتجاهها في تلك المنطقة من جنوبية إلى شمالية .

وقد ترتب على تلك العوامل الطبيعية عجز السفن الحربية عن عبور البسفور ، وبالتالي عدم تحقيق الخطة الخاصة بإحكام حلقة الحصار حول القسطنطينية ، فبينما نجحت بعض وحدات الأسطول العرى في حرمان عاصمة الروم من الاتصال بمصادر تموينها في الجنوب في جزر بحر مرمرة وبحر إيجه كذلك ، ظلت الجهة الشمالية للعاصمة على اتصال بسواحل البحر الأسود ، التى أمدتها بما احتاجت إليه من الغلال وغير ذلك من المواد الغذائية ، وكانت القسطنطينية ترى في جبهتها الشمالية مصدر الحياة الحقيقى ، برغم أن الجهات الجنوبية القريبة منها أمدتها بالرجال والقوى المحاربة ، فكان سكان عاصمة الروم يرتبون خططهم الدفاعية على أساس الاستقلال عن المساعدات الحربية ، وبذل قصارى جهدهم في الاحتفاظ بمصادر غذائهم من ناحية الشمال .

(١) العيون والحداثق : ج ٣ ، ص ٢٤ .

وفي تلك الفترة التي اشتد فيها الحصار العربى للقسطنطينية توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتردد صدى هذا التغيير فى سير الحملة المحاصرة للقسطنطينية ، إذ رأى الخليفة الجديد أن الأوضاع الخاصة بالدولة الإسلامية تتطلب تنظيمًا وتدعيمًا بعد أن صارت رقعتها شاسعة ، وأن إيقاف العمليات الحربية الكبرى شرط أساسى للحصول على الاستقرار المنشود لتلك الدولة الشاسعة .

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية ، فأرسل فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ، أى بعد حصار دام اثنى عشر شهرًا كاملاً ، يطلب من مسلمة العودة بأساطيله وجيوشه إلى الشام ، وبذلك عادت تلك الحملة العربية التى تعد من أضخم الأعمال البحرية التى شاهدها البحر المتوسط طوال تاريخه الحافل بالنشاط الحرى .

وإذا كانت طبيعة الملاحة بالقرب من القسطنطينية قد حالت بين الأسطول العربى وبين الاستيلاء على تلك العاصمة ، فإن نتائج النشاط البحرى العربى فى مياه القسطنطينية قد تردد صداه فى الشطر الغربى من البحر المتوسط ، ذلك أن تكريس الروم لجهودهم وأساطيلهم من أجل الدفاع عن عاصمتهم ضد النشاط البحرى العربى قد هباً للأسطول العربى خلق قاعدة جديدة له فى شمال إفريقيا ، صارت فيما بعد دعامة السيادة العربية فى غرب البحر المتوسط .

obeikandi.com

الأسطول العربى فى شمال إفريقيا

ولقد سارت خطوات نشاط البحرية العربية فى غرب البحر المتوسط فى طريق مماثل لنشأة النشاط البحرى العربى فى الشطر الشرقى من هذا البحر ، ذلك أن أحداث الفتح العربى لشمال إفريقيا ، الذى بدأ بعد الاستيلاء على مصر ، حمل العرب على بناء أسطول لهم فى مياه المغرب يساعدهم على إتمام مشاريعهم وتأمين فتوحاتهم .

وكانت بلاد شمال إفريقيا تابعة للروم ، الذين عملوا إلى التثبيت بالدفاع عن هذا الجزء من ممتلكاتهم ليكون عوضاً لهم عما فقدوه من ولايات فى شرق البحر المتوسط . وكان الإمبراطور قنسطانز الثانى هو صاحب تلك السياسة الجديدة بعد هروبه من وقعة ذات الصوارى البحرية (٥٣٤ — ٦٥٥ م) . فبينما شغلت الدولة الإسلامية بفتنة مقتل عثمان بن عفان وماتلاها من صراع بين على ومعاوية ، تحول ذلك الإمبراطور إلى العناية بشمال إفريقيا .

ودفع الإمبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال إفريقيا عجزه عن هزيمة الأسطول العربى الذى ظهر بأسه فى وقعة ذات الصوارى ، ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم شئون دولته البحرية بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن العرب صاروا قوة كبيرة فى البحر المتوسط ، وأن الحكمة تقضى خلق قاعدة بحرية للروم بعيدة عن بطش الأسطول العربى الفتى ، وتكون وسيلة فى المستقبل لكسر شوكتهم .

وبدأ قنسطانز ينفذ سياسته البحرية الجديدة حين اختار صقلية لتكون

مركزاً للمقاومة ضد النشاط البحرى العربى المتزايد ، فنقل عاصمته إلى تلك الجزيرة بعد وقعة ذات الصوارى ، ثم عهد إلى تدعيم أساطيله هناك بربط ماتبقى لدولته من أملاك فى إيطاليا مع ممتلكاته فى شمال إفريقيا لتصير قوة لها بأسها ، واستهل قنسطانز نشاطه البحرى الجديد من عاصمته سرقوسة (سيراكوز) بصقلية ، حيث بعث أساطيله منها لتغير على القوات العربية التى وصلت طلائعها إلى تونس .

ونجح قنسطانز بفضل قوته البحرية فى استرداد الأقاليم التى فتحها العرب فى برقة وتونس ، كما حصن مدن شمال إفريقيا الهامة مثل قرطاجنة ، وزاد عدد السفن الحربية فيها . غير أن أعمال قنسطانز اتسمت بالقسوة ، ونجم عنها مؤامرة انتهت بالتخلص منه ، وقتله غيلة فى عاصمته الجديدة ، وذلك فى ١٢ يوليو سنة ٦٦٨ م .

غير أن مقتل قنسطانز لم يؤثر فى سياسة الروم البحرية فى غرب البحر المتوسط ، إذ صارت أساطيل الروم تقف بالمرصاد للفتوحات العربية التى اتجهت فى نشاط إلى شمال إفريقيا بعد تولى معاوية بن أبى سفيان عرش الخلافة ، فعندما خرج عقبة بن نافع لغزو شمال إفريقيا سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠ م اتبع الطريق الداخلى ليكون بمأمن من إغارات سفن الروم ، ثم إنه أسس أول قاعدة عربية حربية فى شمال إفريقيا ، وهى القيروان (١) بعيداً عن الساحل ، حتى تكون عسيرة المنال على الأساطيل المعادية (٢) .

ولكن سياسة عقبة لم يكتب لها النجاح بسبب وجود أساطيل الروم وقدرتها على الاتصال بالبربر سكان شمال إفريقيا ، إذ أعد الروم بالاتفاق مع البربر كميناً عند بلدة تهودة ، قضى على عقبة أثناء عودته من إحدى الإغارات

(١) القيروان ، لفظ فارسى معرب ، معناه قافلة أو مراح القوافل .

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٦٠ .

بشمال إفريقيا (١). وقد عجز زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة والذي سار سنة ٦٩ هـ — ٦٨٨ م إلى شمال إفريقيا عن تدعيم الفتوحات العربية هناك بسبب سياسة الروم البحرية كذلك .

وكانت خطة الروم تجرى على أساس استغلال افتقار العرب إلى أسطول يساند فتوحاتهم وزحفهم على شمال إفريقيا ، فلم يتعرض أسطول الروم لقوات زهير أثناء توغلها في بلاد المغرب ، حتى صارت خطوط التموين العربية طويلة ومن السهل مهاجمتها من البحر ، ولم يتنبه زهير لهذا الخطر الكامن له من ناحية البحر ، وتابع فتوحاته ، وعندما فرغ زهير من حملته قفل عائداً إلى برقة ، حيث جرت العادة على عودة القوات العربية إلى مصر بعد إنهاء مهمتها في شمال إفريقيا .

وفي تلك الأثناء تجمعت سفن الروم بالقرب من ساحل برقة لمهاجمة قوات زهير وهي منهوكة القوى ، لتنفض عليها فجأة ، وقد علم زهير عندما اقترب من برقة بنزول جند من الروم على ساحلها ، بدون أن يتوقع قوة استعداد الروم البحري ، إذ اعتقد زهير أن سفناً ضئيلة للروم قد رست بشواطئ برقة ولاضير من مهاجمتها .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار فوجد الروم في سفن كثيرة العدد ، ومعهم عدد من أسرى المسلمين ، ولم يكذب هؤلاء الأسرى يرون زهيراً حتى استغاثوا به مستنجدين ، فأخذت الحمية زهيراً ومن معه وأسرعوا بمهاجمة سفن الروم لتخليص الأسرى ، غير أن الروم كانوا قد أعدوا معسكراً على الشاطئ بعيداً عن أعين العرب ، ولذا ماكادت أقدام زهير ومن معه تطفأ أرض الساحل حتى فاجأه جند الروم المختفي في

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ ، ابن عبد الحكم ص ١٩٨ .

المعسكر ، ودارت رحى معركة قاسية ، استشهد فيها زهير ، كما استشهد عقبة من قبل عند تهودة (١) .

وكان لاستشهاد زهير بأرض برقة نتائج بعيدة المدى في سياسة العرب البحرية في غرب البحر المتوسط ، إذ أدركت السلطات الأموية في دمشق أن الموقف يتطلب انتزاع قواعد الروم البحرية بشمال إفريقيا ، ثم إنشاء أسطول عربى آخر في مياه تلك الجبهة الجديدة ، تكون مهمته القضاء على سيادة الروم البحرية في غرب البحر المتوسط .

واضطلع بتنفيذ تلك السياسة العربية البحرية الجديدة حسان بن النعمان الذى اتجه إلى شمال إفريقيا سنة ٧٦ هـ — ٦٩٥ م . وبادر حسان بمهاجمة قرطاجنة ، أقوى قاعدة لأسطول الروم في مياه المغرب ، وكان يدرك أن نجاحه يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، ومن ثم فاجأ المدينة بقواته الهائلة وأنزل بالروم هزيمة فادحة ، انسحبت على إثرها سفنهم بالميناء ، والتجأت إلى صقلية (٢) .

غير أن الروم انتهزوا ابتعاد حسان في فتوحاته عن قرطاجنة وعادت أساطيلهم مرة ثانية إليها ، واستولت على هذا الميناء الهام بعد قتل الحامية العربية ، ولكن حساناً عاد سريعاً وأفسد خطة الروم باسترداده لقرطاجنة (٣) . وقد جذبت تلك الإغارة أنظار حسان إلى الخطة البحرية التى يجب أن يسير عليها إزاء الروم ، إذ عرف أن للروم على الساحل معاقل أخرى يتخذونها وسيلة لاسترداد قواعدهم البحرية الكبرى .

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٢) البكرى وصف إفريقيا ، ص ٣٧ ، وابن الأثير الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٣ .

(٣) ابن عذارى ، المقرب ج ١ ، ص ٢٠ .

ومن ذلك أن الروم حاولوا بعد خروجهم من قرطاجنة للمرة الثانية اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس ، والذي تقع فيه بنزرت مقراً لأعمالهم الحربية ضد العرب ، وتعرف هذه المنطقة بإقليم سطفورة ، وتضم عدداً كبيراً من المدن التي تعتمد على البحر في الدفاع عن نفسها والحصول على الإمداد ، ولذا بادر حسان بطرد الروم من تلك الجهات الساحلية ودعم أقدام العرب فيها (١) .

ولكن حساناً أحس أن الروم لن يكفوا عن إغارتهم طالما يفتقر العرب إلى أسطول يحمي شواطئ شمال إفريقيا ، وكان حسان صادق الظن ، إذ انتهر إمبراطور الروم انشغال حسان بفتن داخلية في شمال إفريقيا ، وبعث سنة ٧٨ هـ — ٦٩٧ م أسطولاً عظيماً على رأسه أشهر قادته ، وهو البطريق يوحنا ، واستولى على قرطاجنة مرة أخرى ، ومن ثم بعث حسان في طلب أسطول عربى يشد من أزره في استرداد قرطاجنة ، وجاءته عدة سفن حربية كانت أول قوة بحرية عربية ظهرت في مياه شمال إفريقيا .

واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن ينال نصراً باهراً على الروم ، إذ دارت رحى معركة بحرية بين أسطول العرب وأسطول الروم ، انتهت بانتصار العرب ، الذين أثبتوا للروم مرة أخرى أن أسطول العرب الفتى قد صار قوة شديدة البطش ، وآثر أمير البحر على أسطول الروم الفرار عائداً إلى بلاده . ثم إن حساناً رأى أن يتخذ هذا الأسطول العربى الذى جاء لنجدته نواة لخلق قوة بحرية في أرض المغرب ، تعمل على شد أزر العرب في فتوحاتهم وأعمالهم ، فأنشأ قاعدة تونس (٢) . التي حلت محل قرطاجنة ، وصارت مركز البحرية العربية ونشاطها المبكر في غرب البحر المتوسط .

وخطا الأسطول العربى الفتى في غرب البحر المتوسط خطوات سريعة في

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٢) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

سبيل المجد والقوة ، على نحو ما قام به قرينه في شرق البحر المتوسط ، وتجلت مظاهر نشاط الأسطول المغربي في عهد ولاية موسى بن نصير ، الذى خلف حسان بن النعمان على شمال إفريقيا سنة ٨٩ هـ — ٧٠٧ م . إذ استهل هذا الوالى الجديد حكمه بإرسال أسطوله لمطاردة الروم من قواعدهم في الجزر القريبة من الممتلكات العربية في شمال إفريقيا ، فهاجمت السفن المغربية جزر منورقة وميورقة بالقرب من سواحل أسبانيا ، وضممتها إلى التبعية للعرب بشمال إفريقيا (١) .

وفي عهد موسى بن نصير قام العرب كذلك باستخدام أسطولهم لفتح شبه جزيرة أيبيريا ، والانتقال إلى مرحلة جديدة من التوسع ، وإتمام سيادتهم على البحر المتوسط . وفي سنة ٧١٠ م خرج أحد قادة موسى بن نصير ، وهو طريف ، على رأس حملة بحرية قوامها أربعمائة راجل ومائة فارس استولت على شبه الجزيرة الصغيرة التى تعتبر أقصى جزء في الجنوب من القارة الأوروبية .

ولقد ظلت شبه الجزيرة تحمل اسم طريف إلى الآن ، حيث « تدعى تاريخا » أى جزيرة طريف ، وتمثل النتائج الأولى لنشاط العرب البحرى في الميدان الغربى للبحر المتوسط . ثم لم تلبث جهود العرب البحرية أن اتسعت في العام التالى لغزوة طريف ، حيث قام طارق بن زياد على رأس حملة كبيرة أقلتها سفن عديدة إلى الصخرة العظيمة ، التى مازالت منذ ذلك اليوم تخلد هذا العبور البحرى العظيم ، وهى جبل طارق . وتابع موسى بن نصير الاهتمام بالأسطول العربى في المغرب لنقل الإمدادات الحربية وغيرها إلى المقاتلين في أسبانيا ، حتى انتهى الأمر باستيلاء العرب على هذا الركن الهام من جنوب أوربا .

ثم إن الأسطول العربى المغربى على عهد موسى بن نصير سجل نصراً بحرياً

(١) أبو المحاسن ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

آخر ، ساعد على تقدم العرب البحرى فيما بعد نحو الاستيلاء على الجزر الكبرى فى البحر المتوسط ، ذلك أن موسى بن نصير وجه نظره إلى السيطرة على جزيرة قوصرة (١) ، وهى المشهورة اليوم باسم بنظارية ، بسبب قربها من البلاد التونسية ، من الشمال الشرقى . وقد تمتعت تلك الجزيرة بموقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال إفريقيا ، ويمكن اتخاذها فى نفس الوقت قاعدة للتوسع البحرى كذلك ، إذا تقترب جزيرة قوصرة من صقلية ، التى كانت القاعدة الكبرى لأسطول الروم فى غرب البحر المتوسط ، ومركز المقاومة لنشاط العرب البحرى .

وقد أشاد الجغرافيون والرحالة العرب بهذا الموقع الممتاز لتلك الجزيرة لأنها ، « قبالة إفريقية بالقرب من تونس ، وبينها وبين صقلية مجرى ، ويوجد بها شجر المصطكى ، ويجلب منها التين والقطن الكثير » ، وقد صمم موسى ابن نصير سنة ٨٨ هـ — ٧٠٧ م على الاستيلاء على تلك الجزيرة الهامة ، واتخاذها قاعدة أمامية لأسطوله فى صد هجمات الروم ، وقد انتدب لتلك المهمة أحد قادته الأبطال ، وهو عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى خرج على رأس أسطول قوى من القاعدة البحرية الجديدة فى تونس ، واستولى على جزيرة قوصرة ، وضمها إلى ولاية إفريقية (٢) .

وتابع خلفاء موسى بن نصير سياسة الاحتفاظ بتلك الجزيرة فى حيازتهم ، ذلك أن الروم عمدوا إلى انتزاعها من أيدي الأسطول العربى خوفاً من قربها من قاعدتهم بصقلية ، ومن ذلك أن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى سار إلى قوصرة

(١) قوصرة اسم يونانى ومعناه السلة أو السفط أو الزنبيل ، ويبدو أن هذا الاسم أطلق عليها للمشابهة الموجودة بين صورة الجزيرة والسلة ، وتحمل كلمة قوصرة فى اللغة العربية نفس المعنى ، وهو وعاء التمر أو القفة والزنبيل . (انظر حسن حسنى عبد الوهاب ، قصة جزيرة قوصرة العربية بالجملة التاريخية المصرية ، أكتوبر سنة ١٩٤٩) .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق .

على رأس أسطول آخر سنة ١١٨ هـ — ٧٣٦ م ، ودعم السيادة العربية بها .
غير أن استيلاء العرب نهائياً على تلك الجزيرة كان سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٨ م
حين أوفد الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري حملة بحرية سيطرت تماماً على
جزيرة قوصرة ، وجعلتها قاعدة دائمة للأسطول العربى فى غرب البحر
المتوسط (١) .

وسرعان ما ظهر نشاط الأسطول العربى من قاعدته الجديدة فى جزيرة
قوصرة ، إذ خرجت سفنه تباعاً من تلك الجزيرة حيث أغارت على صقلية ،
وأنزلت التخريب والتدمير بأسطول الروم الراسى فى موانئها . وقد ساعدت
تلك الحملات البحرية على دراسة شواطئ صقلية دراسة تامة ، وجعلت
العرب على خبرة كبيرة بقواعدها ، وخير الطرق للاستيلاء عليها . وظهرت
نتائج حملات العرب البحرية التى خرجت من جزيرة قوصرة حين قامت أسرة
الأغالبة فى تونس ، إذ اتخذت من تلك الجزيرة قاعدة لتحقيق سياستها فى
الاستيلاء على جزيرة صقلية ، وبعث نشاط بحرى عربى حافل فى غرب البحر
المتوسط .

(١) حسن حسنى عبد الوهاب المرجع السابق